في تاريخ الأدب المصري

٣ـ ابن النبيـــــه

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

— ٥ —

أهم أغراض شعر ابن النبيه المدح والغزل والرثاء والوصف، ولقد كان مدح شاعرنا رقيقاً بارع الأسلوب، يستهوى السامع ويأسره، ويستطيع أن يملك قلب الممدوح فيهبه جزيل الهبات، وهو يبدؤه بالغزل غالباً وأحياناً كثيرة يبدؤه بذكر الخمر ومجالسها والساقى وجماله وحينما مدح الخليفة الناصر أحمد بدأ مدحه بذكر الناقة التى حملته إلى الممدوح، وقربته من مقر حكمه، كما كان فى بعض الأحيان يبدأ مدحه بدون تقدمة، غير أنه كان حينما يأتى بمقدمة قبل مدحه يجيد غالباً التخلص منها إلى المدح بلباقة وبراعة فهو حين يبدأ بالغزل مثلاً يتخلص إلى المدح بمهارة كقوله:

عسى قلبه يعديه قلبى برقة كما طرفه الفتان بالسقم أعدانى
لئن كان ينسى عقد عهد مودتى فلى ملك من فضله ليس ينسانى

وحين يبدأ بالخمر يحسن التخلص منه كذلك مثل قوله بعد أن وصف الخمر:

حمراء تفعل بالألباب ما فعلت سيوف شاه أرمن فى عسكر لجب

ولقد كان فى النادر يطيل المقدمة إطالة كبيرة حتى تغير على المدح المقصود من القصيدة، ولقد كانت المقدمة مرة سبعة عشر بيتاً فى حين أن المدح لم يستغرق أكثر من أحد عشر بيتاً، غير أن هنا ملحوظة أحب أن أوجه النظر إليهـا، تلك هى صيحة التجديد التى رفع الصوت بها، مندداً بأولئك الذين جعلوا كل همهم تقليد الأقدمين فى بدء الشعر بالحديث إلى الأطلال وسؤال الديار، وهو فى تلك النزعة يشبه — إلى حد كبير — أبا نواس الذى صاح قبله تلك الصيحة، واستمع إلى ابن النبيه يقول:

شكر الدام وشكر موسى مذهبى فلقد محوت بطاعتى عصيانى
شغلى مدامحه وغيرى لم يزل كالبوم يندب دارس الجدران
للبيد والقفر الدوارس معشر عدل الزمان بشأنهم عن شانى

فأنت تراه يشبه أولئك الذين يتحدثون إلى الديار بالبوم تندب دارس الجدران، ثم يؤكد لك أن مذهبه لا يشبه مذهبهم، وطريقته لا تتفق مع طريقتهم ويقول:

حسبك لا يغنى سؤال الديار قم، فاصرف الهم بكأس العقار
واستنطق العيدان إن كنت ذا لب فما ينطق صم الحجار
البم والزير وكأس الطلا أولى بمثلى من سؤال الديار

وهو يشبه فى ذلك أبا نواس الذى سفه أولئك الباكين على الأطلال والآثار، وصرح بأن الأولى والأفضل أن يبدأ الشعر بذكر الخمر وما إلى الخمر

ولقد سار ابن النبيه على تلك الطريقة فلم يبدأ شعره يوماً بسؤال حجر ولا استنطاق أثر، وهناك نقطة ثانية نراها فى بعض مدحه تلك هى نقطة الاستطراد والدخول فى موضوع جديد بمناسبة ذكره، ولنمثل لذلك بمدحه للخليفة الناصر فهو قد مدحه وأثنى عليه، وما هو إلا أن ذكر انتسابه للنبى حتى مضى يمدح النبى، ويذكر خصاله ومعجزاته ولعل ذلك نشأ من أن الخليفة فى ذلك الوقت لم يكن له من السلطان والقوة شىء، وإنما كان يعتز بالسلطة الروحية التى تستمد من النبى، فلا جرم كان مدح النبى مصدر تلك السلطة مدحاً للخليفة، وترقية من شأنه، هـذا وقصائد مدحه متوسطة بين الطول والقصر غير أنه كان يقصرها أحياناً، ولكن لا يفوته أن يعتذر عن هـذا القصر،

القرى والزروع والأشجار، والبيادر ليست كالطريق بين طهران وأصفهان. ومررنا بقرية صغيرة وقف عليها السائق قائلاً لا يفوتنا أن نأكل من عسل هذه البلدة فهو حديث الركبان. ثم دخل بناء إلى جانب الطريق، وعاد بقليل من العسل والزبد والخبز. وقد صدق الخبر خبر صاحبنا فقد وجدنا عسلاً صافياً بارداً فقلنا قد أبدلنا الله بشمامة تخت شير عسل راهجرد. وتمادى بنا السير حتى اجتزنا بقرية اسمها ابراهيم آباد فعلمنا أننا على مقربة من غايتنا، وبعـد نصف ساعة وقفنا فى مدخل سلطان آباد والساعة ست وخمس وأربعون مساء بعد أن فصلنا أصبهان بعشر ساعات ونصف، فرأى الشرطة جواز السفر ودخلنا المدينة:

عبد الوهاب عزام

ولنختم الحديث عن مدحه بذكر قطعة صغيرة تعطيك صورة عن هـذا المدح : قال يمدح الملك الأشرف ، ويذكر دخوله مدينة خلاط :

أبى سخى تحت سطوته الغنى ... تخف وتيقن أن فى عسره يسرا
هو البحر بل أستغفر الله إن فى ... بنان يديه للندى أبحرا عشرا
لحى الله حربا لم يكن قلب جيشها ... ومجلس عدل لا يكون به صدرا
أطل على أخلاط يوم قدومه ... بلجة جيش يملأ السهل والوعرا
تلقاه من بعد المسافة أهلها ... فذا رافع كفا وذا ساجد شكرا
فشككت أن الناس قد حشروا ضحا
أم الناس يستسقون ربهم القطرا

أما غزل شاعرنا فنوعان : غزل هو مقدمة لمدح ، وغزل قصد إليه قصداً وعناه من أول الأمر ، وهو فى كلا الغزلين عذب جميل تحس فيه رقة الهوى وشكواه ، وقد تحدثنا عن تغزله بالغلمان : السقاة منهم والجنود ؛ ومن الرقيق هنا أنه كان يستخدم ألفاظاً للتورية كقوله فى غلام يهودى :

من آل إسرائيل علقته ... عذبنى بالصد والتيه
أنزلت السلوى على قلبه ... وأنزل المن على فيه

على أن غزله لم يقتصر على المذكر ، بل كان يتغزل كذلك بالمؤنث وإن كان قليلاً . ومن أرقه قوله :

إلى كم أكتم البلوى ودمعى ... يبوح بمضمر السر الخفى
وكم أشكو للاهية غرامى ... فويل للشجى من الخلى
ممنعة لها طرف سقيم ... شديد الأخذ للقلب البرى
وشاحاها على خصر عديم ... ومئزرها على ردف ملى

وقد صدرنا مقالنا بشىء من هذا الغزل الرقيق الذى شهر به شاعرنا حتى أصبح يقال فى حقه : هو صاحب الغزل البديع ، فهو جميل حين يصف لك الحب وإن كان وصفا حسياً ، وجميل حين يذكر أيام الوصل أو حين يعيد إلى نفسه ذكرى الأيام العذبة ويقول :

أترى لأيامى بوصلك عودة ... ولو أنها فى بعض أحلام الكرى
زمن شربت زلال وصلك صافيا
وجنيت ورد رضاك أخضر مثمرا
ملكتك فيه يدى فحين فتحتها ... لم ألق إلا حسرة وتفكرا

لننصت إليه حين يقول ارتجالا :

أمانا أيها القمر المطل ... فمن جفنيك أسياف تسل
يزيد جمال وجهك كل يوم ... ولى جيد بذوب ويضمحل
وما عرف السقام طريق جسمى ... ولكن دل من أهوى يدل
إذا نشرت ذوائبه عليه ... ترى ماء يرف عليه ظل
أيامالك القلوب فتكت فيها ... وفتكك فى الرعية لا يحل
قليل الوصل ينفعها فان لم ... يصبها وابل منه فطل
أدر كأس المدام على الندامى ... فمن خديك لى راح ونقل
فنيرانى بغيرك ليس تطفى ... وأحزانى بغيرك لا تبل

فهو مع استخدامه الصناعة اللفظية لم يزل جمال الشعر رائعاً خلابا كما ترى

(يتبع)

أحمد أحمد بدوى

ظهرت الطبعة الجديدة لكتاب

رفائيل

غزل

صحائف من العشرين

شاعر الحب والجمال (لامرتين)

مترجمة بقلم

احمد حسن الزيات

والقصة قطعة من شباب لامرتين ، وجذوة من شعوره ، ولحن من شعره . طبعتها لجنة التأليف والترجمة والنشر طبعة أنيقة منقحة رخيصة فاطلبها منها أو من ادارة الرسالة أو من أى مكتبة ، والثمن ١٢ قرشاً

القُبلة الممنوعة

تحفة من الشعر الرائع

للعالم الشاعر الأستاذ أحمد الزين

يا غُنّة الصدر من حرّ الجوى زيدى ... أبَتْ شفاءكِ حتى بالمواعيد
سِحريّةُ الفم لو مَسّت بقُبلتِها ... فمَ العَبيِّ لَحلّت كلَّ معقود
تكاد من رِقّةٍ تُغرى مقبّلها ... أن يحتسيها رحيقاً غيرَ مورود
قد صاغها الله لمّا أشركتْ أمَمٌ ... به وقال اشهدوا برهانَ توحيدى
قل للبخيلة جودى لا لقيتِ حِرًى ... إن كان يشفع لى قولى لها جُودى
وساعةٍ تحت أفياء الهوى سَلَفَتْ ... ياساعةً تحت أفياء الهوى عُودى
ماضرّ لو أنها فى قُبلةٍ سَنَحَتْ ... مَنّت بوعدٍ وإن ضَنّت بموعود
هل حاذرتْ حَرّ شوقى حين ألثمُها ... أن تُذبل الوَردَ أنفاسى بتصعيد
رُحماكِ لليائس الممطول يُقنعه ... من الوجود خيالٌ غيرُ موجود
ظمآنُ لا رَشَفاتُ الماء صافيةً ... تروى صَداه ولا بنتُ العناقيد
شفاؤه قبلةٌ لو أنّ محتضراً ... داوى بها الموتَ رَدّت غيرَ مردود
فكم أقبّل ثغرَ الزّهر من شَبَهٍ ... بثغرِكِ العَذْبِ فى حُسنٍ وتوريد
عينٌ من الخُلد مَن يَنهَل بكوثرِها ... وردَ الحياة يَفُزْ منه بتخليد
صوتٌ من القلب أمليه على فمِها ... وعهدُ حُبٍّ على الأيام ممدود
وللقلوب لغاتٌ ليس يدركها ... بسوى فؤادٍ بنار الوجد معمود
حديثُ شوقٍ بلا حرفٍ ولا كَلِمٍ ... تُفضى به شفتى للخدّ والجيد
معنًى من الحبّ يسمو أن أؤدّيَهُ ... بكلّ لفظٍ من الألفاظ محدود
اللفظ يَثقُل بالترديد موقعُه ... وتلك تحلو معانيها بترديد
دع الرسائل فيما لا تحيط به ... تلك اللغاتُ ودَع صَوْغَ الأناشيد
فللشفاهِ على أمثالها لغةٌ ... أحلى على السّمع من مزمار داود
أدّتْ عن القلب ما يعيا اللسانُ به ... كمنطق الطير غِرّيدٌ لغِرّيد
كم قُبلةٍ لا أرَى الدنيا لها ثمناً ... فلا تَبِعْ غيرَ ممدودٍ بممدود

أحمد الزين

على مذهب روسو

ثورة على الحضارة

للأستاذ محمود غنيم

ذَرَعْتم الجو أشبارا وأميالاَ ... وجُبتم البحر أعماقا وأطوالاَ
فهل نَقَعْتم هموم العيش خردلةً ... أو زدتمو فى نعيم العيش مثقالا ؟
صرعى الهواء وغرقى الماء قد كثروا ... وراكب الخيل جرّ الذيل مختالا
العيسُ ألين ظهرا من مراكبَ إن
جنّبن هولا فقد قرّبن أهوالا
تسنّم القوم غربَ الجو وانطلقوا ... كأنّ للقوم فى الأفلاك آمالا
أقسمت لو دنت الأفلاك طائعة ... فنالها المرء لم يقنع بما نالا

* * *

إنى أرى الناس مازادوا رفاهيةً ... فى العيش زادوه تعقيدا وإشكالا
كم هان أمر فقلناه طائفةً ... من الحواشى وحملناه أثقالا
تجاوز العرفُ والعاداتُ حدّهما ... فأصبحا فى رقاب الناس أغلالا
يا طالما حدثتنى النفس قائلةً ... أنحن أنعم أم أسلافنا بالا ؟
كانت حياتهمو تُصفى بساطتُها ... عليهمو من هدوء البال سربالا
كم للمحاكم أحكام يقوم بها ... فى البدو فيصلُه ـ والقولُ ماقالا
لا الحق ضاع إذا ماعىّ مدرهُهُ ... ولا ترقّبُ يوم الفصل قد طالا
قدّرتم الوقت تقدير الشحيح به ... فكدتمو تملؤون الليل أعمالا
أتخمتمُ الوقت بالأعمال ويحكمو ... هلاّ أصمتم إلى الآجال آجالا !

* * *

تحضّر الناسُ حتى بالمكرمة ... قُدّس لديهم ولكن قدّسوا المالا
فى كل مملكة حربٌ منظمةٌ ... تضم جيشين : مُلاّكا وعمالا
يد السياسة بالأخلاق قد عبثت ... وقوّض العلم صرح الدين فانهالا
البدو أكرمُ أخلاقا وأحسبهم ... لله أكثرَ تقديسا وإجلالا
قالوا : تألق نور العلم ، قلت لهم : ... بل ناره أصبحت تزداد إشعالا